تَشَابُكٌ

طالَ انتظاري لحديثِهِمَا - بينما كانت نظراتُهما تعبراني خلسةً وتتوقف كثيراً عند تفاصيل الحُجْرةِ ، ملفاتِ القضايا المكدَّسةِ ، مكتبتي الممتلئةِ بكتبِ القانون، ورُقعةِ (الشطرنج) الزجاجيَّةِ المستقرَّةِ على المِنْضَدَةِ وعليها الأحصنةُ كلٌ في مكانِهِ يَصْهِلُ حيناً ويجلجلُ في أحيانٍ أُخرى . . رحتُ أتأمَّلُ وجهيهِمَا، الأُمُّ وبرفقتِهَا ابنتُها النحيلةُ والبادي شحوبُها كثيراً ثم أَرْدَفَتْ : خيراً يا أمي أنا تحت أمرِكِ.. !!

استقرتْ نظرةُ عَيْنَيْ الأمِّ على المربعاتِ كانت إحداهما زجاجاً لامعاً كمرآةٍ بينما الأخرى زجاجٌ مصقولٌ كعتمةٍ غافيةٍ : خيراً يا أستاذة نريد أنْ «نخلعَها » من زوجِها وأشارت إلي ابنتِها التي برفقتِهَا : متى كان الزواج ..؟؟

.منذُ ثلاثةِ أشهرٍوعَشْرةِ أيامٍ : إذن نعطيهم فرصةً أخرى ، السنةُ الأولى صعبةٌ كثيراً على الولد والبنت.. !!

لكنها لم تلتفتْ لكلامي بينما ظلَّتْ مثبتةً عينَيْهَا على الحِصانَيْنِ وكأنَّما تريدُ أن تختارَ إحداهُما . كنتُ دائماً ما أُعطي الحِصانَ اللَّامعَ لموكِّلي بينما يتبقى لي الحصانُ الزُّجَاجِيُّ المصنفر. مضَتْ برهةُ صمتٍ ثم فاجأتني بوقفتِها وعصبيتِها المُفْرِطَةِ : إنْ كنتِ لا تريدينَ القضيَّةَ فسأذهبُ بها إلى محامٍ آخرَ فقضايا الخُلع مضمونةٌ والنَّصيبُ قد انتهى . راوغتْني المرأةُ رغم بساطتِها وعفويتِها الباديتَيْنِ وهزمتْني تلقائيةُ الحصانِ اللَّامعِ عن معرفةِ أيَّةِ تفاصيلَ أخرى . ورفعتُ القضيةَ عن موكِّلتي ، هذه الصَّمُوْتِ ذاتِ الحاجبَيْنِ الكثيفَيْنِ ، والشَّفَتَيْنِ المُكْتَنِزَتَيْنِ بطُعُومِ الغوايةِ المختلفةِ وذاتِ السِّلْسِلَةِ الرَّقِيقةِ حَوْلَ رقبتِها والتي يَتَدلَّى منها أولُ حرفٍ لاسمِ زوجِها.. !!

في ردهاتِ المحكمةِ ، وبين الجِلْسَاتِ كنتُ أحاولُ سَبْرَ أغوارِ الصَّغِيرَةِ لكنَّ الأمَّ كانتْ تقفُ لي بالمرصادِ مصرَّةً على إتمامِ الطَّلاقِ ، وكُلَّما وجَّهْتُ سؤالاً للابنةِ كانتْ تلوذُ بالصَّمْتِ وتحتَمِي بذراعِ أمِّهَا كطفلٍ صغيرٍ يخافُ بشدَّةٍ عبورَ الطَّرِيقِ بمفردِهِ..!!

استدعتِ المحكمةُ الابنةَ لتستَوْثِقَ منها فأجابتْ بصدقٍ عن كلِّ الأسئلةِ الموجهةِ إليها وأفادت وهى مطرقةٌ بينما كانَ لعابُها يسيلُ على جانبِ شفتَيْهَا وتروحُ تمسحُهُ بمنديلِها الوَرْدِيّ

: بأنَّهُ كانَ كريماً جدَّاً معها يُنْفِقُ عليها مَأْكَلاً ومَشْرَباً وكُسْوَةً ولم يقصِّرْ في حقوقِها

الشَّرعيَّةِ كزوجةٍ ، وكانَ يُحْسِنُ معاشَرَتَها ويخافُ عليها، وعندما سألها القاضي لماذا تُصِرّينَ على الطلاق : أطرقَتْ قائلةً وقد تحجَّرَتْ دموعُها : ليس بيدي إنني أبغضُهُ كُرْهَاً.. !

وَحُجِزَتِ القضيةُ للنطقِ بالحُكمِ لكنَّ إحساساً غريباً تملَّكني بأنَّني ما كنتُ سوى بيدقٍ صغيرٍ تحركهُ المرأةُ بمنتهى الدهاءِ على مربَّعٍ زجاجيٍّ مُصنفرٍ. أمضيتُ لياليَ كثيرة ناوشتْني فيها الأسئلةُ كنَارٍ متأرجحَةٍ عن السِّرِّ الكامنِ وراءَهُمَا وعن إصرار الأمِّ على تطليقِ ابنتها دون شكوى أو حزنٍ أو حتى مجردِ البحثِ عن طاقةٍ تتسرَّبُ من خلالِها احتمالاتٌ للصُّلْحِ مثلَ كلِّ القضايا المشابهةِ لحالتِها. نظرتُ للعساكر وقد تحركوا من أماكنهم ووقفوا جميعاً في نفسِ الرُّقعِ اللَّامِعَةِ فطَفَتْ على وجهي ابتسامةٌ مباغتةٌ كومضٍ فهاتفتهما ليأتيا إلى مكتبي لأمرٍ ضروريٍّ وحتميٍّ وسيؤُثِّرُ كثيراً على سيرِ القضيةِ..!!

استفزَّني صمتُهُمَا المعتادُ ففاجأتُ الصغيرةَ بسهمٍ أصاب هدفَهُ بدقَّةٍ : أنتِ حامِلٌ أليس كذلك..؟

فأَوْماتْ بنعمٍ دونَ تفكيرٍ بينما انتفضَتِ الأمُّ وقد بدا أنَّها هَزِأَتْ باللُّعْبَةِ كلِّهَا مَنْ أدراكِ.. ؟ مَنْ قال لكِ.. ؟؟ لكنَّ هذا لن يؤثرَ في القضيَّةِ .. كانت الأمُّ تردُّ منفعلةً ، تلعثمتْ كثيراً ثم انتفضتْ و دخلتْ في بكاءٍ عنيفٍ طلبَتْ الانفرادَ بالأمِّ ، وأخرجتُ الصغيرةَ التي زاد ارتباكُها ، وطفقَتْ تمسحُ دموعَهَا وقد بدا عليها الإرهاقُ الشديدُ كفكفتْ الأمُّ دموعَها لكنَّها لاذت بالصمتِ وكأنَّما استدركتْ أن عليها أن تمضيَ في رحلةِ كتمانِهَا للنهايةِ كنتُ كمَن أُوحِيَ إليه بفكرةٍ بعيدةٍ .. كَحَدْسِ تحريكِ الوزير بنقلةٍ فجائيةٍ وسألتُها وقد ثبَّتُّ عَيْنَيَّ في عينَيْهَا : مَن السببُ في ورطةِ ابنتِكِ.. ؟

لكنها صمتَتْ كعادتها وطالَ صمتُها فقمتُ غاضبةً وقد أعطيتُها ظهري ولملمتُ كلَّ القطعِ المنتصبةِ وجمَّعْتُها في كيسٍ ملقىً على جانبِ المقعد قائلةً : القضيةُ وقد حُجِزَتْ للحكم ،وأنا لن أبوح بشيءٍ فاصدقيني.. مَن كانَ السببُ في ورطتِهَا.. ؟؟ هل هو رجلٌ غريبٌ .. كانتْ تحبُّه قبل الزواج..؟ هل هناكَ من اعتدى عليها ..؟؟ هل هو أخو زوجها ..؟؟ أجابتني بتلقائية لا تتصنَّعُها : لا.. لا ليس هو إن أخاه شابٌ طيِّبٌ كان دائماً ما يربتُ على كتفَيْها ويقول لها أنتِ مثل أختي التي لم تنجبْها المرحومةُ أمي ودائماً ما يأتي لها بكلِّ ما تحتاجُهُ وتسارعتْ دقاتُ قلبي حين رأيتُ الملكَ قد أصبحَ وحيداً عارياً ومنكَبّاً على ذاتِهِ بينما انقضَّتْ عليه جوانبُ الكيسِ المهترئةِ من كافَّةِ الجوانبِ وسلبتْهُ أسلحتَهُ كلَّها لتسقطَهُ..!

أكدْتُ على سؤالي دون أنْ انتظرَ منها الإجابةَ : لآخر مرَّةٍ أسألكِ مَنْ .. ؟؟ مَن الَّذي

كانت لديه مفاتيحُ الحُجُرَاتِ كلِّها..؟؟
مَن الذي كان لديه رغبةُ التهامِ الطَّعامِ كُلِّهِ ..؟؟
ومن الذي كانتْ تَنْهَشُهُ الغَيْرَةُ وتفتِكُ به فينسى أبوَّتَه لابنه حين يراهُ مع زوجتِه يضحكانِ سويَّاً أو يجلسانِ سويَّاً أو حتَّى حينَ يتلصَّصُ عليهما من ثقب المفتاح حين يمتزجانِ ..!؟
فأجابتني : بنعمٍ واضحةٍ دونَ التباسٍ وأيضاً دونَ أنْ تنطقَ بها وأطرقَتْ يائسةً بينما عيونُها تملؤُهَا الدُّموعُ كبركانٍ ثم تفيضُ فتحيلُ وجهَهَا كزجاجٍ مصنفرٍ ولامعٍ في آنٍ واحدٍ . ووقفتُ أمامَ القاضي وقد أخذتُ المرأَتَيْنِ تحتَ جناحَيَّ، ولم يكنْ ذلكَ لأربحَ شيئاً بقدرِما كان لرغبتي العنيفةِ لِأَنْ ننتصرَ سويَّاً ولَمْ أشترِكْ مَعَهُمَا لإسدالِ الستائرِ، بلْ فتحتُ النوافذَ للمَدَى المعتمِ ورفعتُ صوتِيَ عالياً وواضحاً لا لَبْسَ فيه ودونَ موارَبَةٍ أو خَجَلٍ : سيِّدي القَاضي : لابُدَّ أَنْ نُخْضِعَ الجنينَ لاختباراتِ ال (DNA)وأَنْ نُعِيدَ الاستماعَ جيّدَاً وبالتفصيلِ الدَّقِيقِ لأقوالِ الشُّهودِ في الواقعةِ وأنْ نقدِّمَ الجَانِي للعدالةِ حتَّى وإنْ تنازلَتِ الأطرافُ جميعُهُم عن حقوقِهِمُ القانونيَّةِ .!